الناس في بلادي

رحلة في الليل

١ – بحر الحِداد

الليلُ يا صديقتي يَنْفُضُني بلا ضمير
ويطلقُ الظنون في فراشِي الصغير
ويثقلُ الفؤادَ بالسوادْ
ورحلةِ الضياعِ في بحر الحِداد
فحين يقبلُ المساءُ ، يقفرُ الطريقُ ، والظلامُ محنةُ الغريب
يهب ثُلَّةُ الرفاقِ ، فُضَّ مجلسُ السمرْ
« إلى اللقاءِ » – وافترقنا – « نلتقي مساءَ غدْ »
« الرخُ ماتَ – فاحترس . الشاهُ ماتْ ! »
« لم يُنجِهِ التدبيرُ ، إني لاعبٌ خطيرْ »

« إلى اللقاءِ – وافترقنا – « نلتقي مساء غد »
أعودُ يا صديقتي لمنزلي الصغيرْ
وفي فراشِيَ الظنونُ ، لم تَدَعْ جَفْنِي ينام
ما زالَ في عرض الطريق تائهونَ يظلمونْ
ثلاثةٌ أصواتهم تنداحُ في دوامَةِ السكونْ
كأنهم يبكونْ
– « لا شيءَ في الدنيا جميلٌ كالنساءِ في الشتاءْ »
– « الخمرُ تهتك السِرارْ »
– « وتفضحُ الإزارْ »
– « والشعارَ ... والدثارْ »
ويضحكون ضحكةً بلا تخشُومْ
ويقفرُ الطريقُ من ثغاءِ هؤلاءْ

٢ – أغنية صغيرة

اليكِ يا صديقتي أغنيةً صغيرهْ
عن طائرٍ صغيرْ

في عشه واحدهُ الزَغيبْ
وإلفهُ الحبيب
يكفيهما من الشرابِ حسوتا منقار
ومن بيادرِ الغلالِ حبتانْ
وفي ظلامِ الليل يعقد الجناحَ صُرةً من الحنانْ
على وحيدِه الزغيب
ذات مساء ، حطَّ من عالي السماءِ أجدلٌ منهومْ
ليشربَ الدماء
ويعلك الأشلاءَ والذِماء
وحار طائري الصغيرُ برهةً ، ثم انتفض ...
معذرةً ، صديقتي ... حكايتي حزينة الختامْ
لأنني حزين ...

٣ - نزهة الجبل

الطارقُ المجهول ، يا صديقتي مُلثَّمٌ شريرْ
عيناه خنجران مَسْقيان بالسموم

والوجهُ من تحت اللثامِ وجهُ بوم
لكنّ صوتَهُ الأجشّ يشدخُ المساءْ
« إلى المصير » ..! والمصيرُ هوّةٌ تروّعُ الظنونْ
وفي لقائِنا الأخير يا صديقي وعدتني بنزهةٍ على الجبل
أريدُ أن أعيشَ كي أشمَّ نفحةَ الجبل
لكن هذا الطارق الشريرَ فوق بابِيَ الصغيرْ
قَدْ مَدّ من أكتافِهِ الغلاظِ جذعَ نخلةٍ عقيمْ
وموعِدي المصيرُ ... والمصيرُ هوّة تروّع الظنون

٤ – السندباد

في آخر المساء يَمْتَلي الوسادُ بالوَرَق
كوجه فأرِ ميتٍ طلاسمُ الخطوطْ
وينضَحُ الجبينُ بالعَرَقْ
ويلتوي الدخانُ أخطبوط
في آخرِ المساءِ عادَ السندباد
ليُرْسِيَ السفينْ

وفي الصباحِ يَعْقِدُ النُدْمَانُ مجلس النَدَمْ
ليسمعوا حكايةَ الضياعِ في بحر العدم

السندباد :

(لا تحك للرفيقِ عن مخاطرِ الطريق)
(إن قلتَ للصاحي انتشيتُ قالَ : كيفْ ؟)
(السندبادُ كالإعصارِ إن يَهدأْ يَمُتْ)

الندامى :

هذا محالٌ سندبادُ أن نجوبَ في البلاد !
إنّا هُنَا نُضَاجِعُ النِسَاءْ
ونفرسُ الكُرُوم
ونعصرُ النبيذَ للشتاء
ونقرأُ (الكتابَ) في الصباحِ والمساءْ
وحينما تعود نعدو نحو مجلس النَدَم
تحكي لنا حكايةَ الضياعِ في بحرِ العدم

٥ – الميلاد الثاني

في الفجر يا صديقتي تُولَدُ نفسي من جَديدْ
كل صباح أحتفي بعيدها السعيد
ما زلتُ حيّاً ! فرحتي ! ما زلتُ والكلامُ والسبابُ والسُعَالْ
وشاطيءُ البحارِ ما يَزالُ يَقْذِفُ الأصْدافَ واللآلْ
والسحبُ ما تَزَالْ
تسحُّ ، والمخاضُ يُلْجِيءُ النِساءَ للوِسادْ
ويلعبُ الأطفالُ فوق اسطح البيوتِ
لعبة العريس والعروس والتبات والنبات
والوردُ في خد البنات
وعند شطِ النهر عاشقانِ سارحانْ
لله ما أحلى عيونَ العاشقينَ حين يبسمونْ
ويقسمونْ
بِحُرْمَةِ الشُجون
وبالليالي المثقلاتِ ، وانتفاضَةِ الحَنين

وبالسوادِ في العيونْ
العهدُ لن يهون
صديقتي ، عمي صباحا ، هل ذكرتُ نزهةَ الجبل

٦ – إلى الأبد

« الرخ مات – لا تُرَعْ – فالشاه ما يزال »
والشاهُ بالبيادقِ التأمْ
« إلى اللقاء » –
وافترقنا –
« نلتقي مساء غد »
لنكمل النِزَالَ فوق رقعة السوادِ والبياض
وبعد غد !
وبعد غد !
سنلتقي ...
إلى الأبد ...

هجم التتار

هجم التتار
ورَمَوْا مدينتنا العريقةَ بالدمارْ
رجعت كتائبنا ممزقةً ، وقد حَمِيَ النَهَارْ
الرايةُ السوداءُ ، والجرحى ، وقافلةٌ مَوات
والطبلةُ الجوفاءُ ، والخطُو الذليلُ بلا التفاتْ
وأكفٌ جندِيٍّ تدقّ على الخَشَبْ
لحنَ السَغَبْ
والبوقُ ينسِلُ في انبهار
والأرضُ حارقةٌ ، كأنّ النارَ في قُرْصٍ تُدَار
والأفقُ يختنقُ الغبار

وهناك مركبةٌ محطمةٌ تدورُ على الطريق
والخيلُ تنظر في انكسار
الأنفُ يَهْمِل في انكسار
العينُ تدمَعُ في انكسار
والأُذْنُ يلسَعُها الغبار
والجندُ أيديهم مدلاةٌ إلى قربِ القدمْ
قصاتُهُم محنيّةٌ مصبوغةٌ بنِثَارِ دم
والأُمهاتُ هربنَ خلفَ الرَبْوَةِ الدَكْناءِ من هول الحريق
أو هول انقاض الشقوقْ
أو نظرة التَتَر المحملقةِ الكريهة في الوجوهْ
أو كفّهم تمتد نحو اللحم في نهم كريه
زحف الدمارُ والانكسارْ
وابلدتي ! هجم التتار

في معزل الأسرى البعيدْ
الليلُ ، والأسلاكُ ، والحرسُ المدجّج بالحديد

والظلمةُ البلهاء ، والجرحى ، ورائحةُ الصديد
ومزاحُ مخمورين من جند التتارْ
يتلمظون الانتصار
ونهاية السفر السعيد
وأنا اعتنقت هزيمتي ، ورميتُ رِجْلي في الرمالْ
وذكرتُ – يا أمي – أماسِينا المنعَّمة الطِوال
وبكيتُ ملءَ العين – يا أمي – لذكرى كالنسيمْ
وغمائم الكلمِ القديمْ
أمي ...
وأنت بسفح ذاك التل بين الهاربين
والليل يَعقدُ للصغار الرعبَ من تحت الجفون
والجوعُ والثوبُ الشفيف
والصُم والسِمْلاةُ والظَلْماءُ تقعي في الكهوف
أترى بكيت لأنَّ قريتنا حطام ..؟
ولأن أياماً أثيرات تولَّتْ لَن تعود ؟
أماه ! إنّا لن نبيدْ

هذا بسمعي صاحبٌ من أهْلِ شارعنا العتيد
وسعالُ مهزومٍ قعيدْ
وفمٌ يهمهمُ من بعيدٍ بالوَعِيدْ
وأنا – وكلُ رفاقِنا – يا أمُّ حين ذَوَى النهار
بالحقدِ أقْسَمنَا ، سنهتفُ في الضحى بدمِ التتار
أماه ! قولي للصغارْ :
أيا صغار ...
سنجوسُ بين بيوتنا الدَكْنَاءِ إن طَلَع النهارْ
ونشيدُ ما هدم التتار ...

شنق زهران

... وثوى في جبْهَةِ الأرض الضياء
ومشى الحزنُ إلى الأكواخِ ، تِنّينٌ لهُ ألفُ ذراع
كل دهليزٍ ذِرَاع
من أذانِ الظهرِ حتى الليل ... يا لله
في نصفِ نهارْ
كل هذي المحن الصَمّاءِ في نصفِ نهارْ
مذ تدلّى رأسُ زهران الوديعْ

كان زهران غلاما
أمّه سمراء ، والأب مولّد

وبعينيه وسامهْ
وعلى الصَدغِ حمامهْ
وعلى الزند أبو زيدٍ سلامه
ممسكاً سيفاً ، وتحتَ الوشمِ نَبْشٌ كالكتابه
اسمُ قريه
« دنشواي »
شبّ زهرانُ قويّا
ونقيا
يطأ الأرض خفيفا
وأليفا
كان ضحاكا ولوعا بالغناءْ
وسماع الشعر في ليل الشتاء
ونَمَتْ في قلبِ زهرانَ ، زُهَيْرَهْ
ساقها خضراءُ من ماءِ الحياه
تاجُها أحمر كالنارِ التي تصنَعُ قُبْلَه
حينما مر بظهر السوق يوما

ذات يوم ...

مر زهران بظهرِ السوق يوما
واشترى شالا مُنَمْنَمْ
ومشى يختالُ عجباً ، مثلَ تُرْكيٍّ مُعَمَّم
ويُميلُ الطَرْفَ ... ما أحلى الشبابْ
عندما يصنع حبا
عندما يَجْهَدُ أن يصطادَ قلبا

كان يا ما كان أن زُفَّتْ لزهران جميلهْ
كان يا ما كان أن أنجب زهران غلاما ... وغلاما
كان يا ما كان أن مَرَّتْ لياليه الطويلهْ
ونمت في قلبِ زهرانَ شجَيره
ساقها سوداءُ من طين الحياه
فرعُها أحمرُ كالنارِ التي تُحْرقُ حقلا
عندما مَرَّ بظهر السوق يوما

ذات يوم
مر زهران بظهر السوق يوما
ورأى النارَ التي تُحْرِقُ حقلا
ورأى النارَ التي تصرع طفلا
كان زهران صديقاً للحياه
ورأى النيرانَ تجتاح الحياه
مد زهران إلى الأنجم كفًّا
ودعا يسألُ لُطْفًا
ربما ... سَوْرَةُ حِقدٍ في الدماء
ربما استَعْدى على النارِ السماء

وضع النِطع على السِّكَّة والغيلانُ جاءوا
وأتى السيافُ مسرورُ وأعداء الحياه
صنعوا الموتَ لأحباب الحياه
وتدلّى رأسُ زهران الوديعْ

قريتي من يومها لم تـأتـدِمْ إلّا الدموعْ
قريتي من يومها تأوي إلى الرُكـنِ الصديع
قريتي من يومها تخشى الحياهْ
كان زهرانُ صديقاً للحياه
مات زهرانُ وعيناه حياه
فلماذا قريتي تخشى الحياه...؟

أبي

... وأتى نَعْيُ أبي هذا الصباحْ
نام في الميدان مشجوجَ الجبينْ
حولَهُ الذؤبان تعوي والرياحُ
ورفاقٌ قبّلوة خاشعينْ
وبأقدام تجرّ الأحذية
وتدق الأرض في وقعٍ مُنَفّر
طرقوا الباب علينا
وأتى نعيُ أبي

كان فجراً موغلاً في وحشته

مطرٌ يهمي ، وبردٌ ، وضبابْ
ورعودٌ قاصفهْ
قطةٌ تصرخُ من هولِ المطر
وكلابٌ تتعاوى
مطر يهمي ، وبردٌ ، وضباب
وأتينا بوعاءٍ حجري
وملأناهُ تراباً وخشبْ
وجلسنا
نأكلُ الخبزَ المُقدَّدْ
وضحكنا لفكاهه
قالها جدي العجوزْ
وتسلّل
من ضياءِ الشمسِ موعد
فتفاءلْنَا ، وحيّينَا الصباح
وبأقدامٍ تجُرُّ الأحذيه
وتدقُ الأرض في وقع مُنفّر

طرقوا الباب علينا
وأتى نعيُ أبي
حين ودعت أبي
من زمان
كان دَمْعي غائراً في مُقلَتي
وشفاهي تنطقُ الحرفَ الصغيرْ
يا أبي !
مرة يخنُقُهُ الدمعُ ، ويأبَى
أن يذوبْ
في فراغِ العدمِ
ثم جمتُ حياتي
وهي بعضٌ من أبي
ما الذي يقصيك عني ..؟
ما الذي يدعوك للبحر الكبيرْ ؟
ما الذي يدعوك للدرب المضلّل؟
لم تجفو مضْجَعَكْ ؟

لم يبدو الموتُ في منزلنا
قدراً لا يخطىءُ
وأبي يثني ذراعَهْ
كهرقل
ثم يعلو بي إلى جبهته
ويناغي
تارة رأسي وطوراً منكبي
ويصرّ البابُ في صوتٍ كئيبْ
ومضى عني ، وراحتْ خطوته
في السكونْ ...
ونرى ظلمتَهُ بينَ الضباب
وأرى الموتَ ، فأعوي
يا أبي !
وأتى نعيُ أبي هذا الصباح
نام في الميدان مشجوج الجبين

جُنّتْ الريحُ على نافذتي
في مسائي ، فتذكرت أبي
وشَكَتْ أُمّيَ من علّتها
ذاتَ فجرٍ ، فتذكرت أبي
عقَرَ الكلبُ أخي ...
وهو في الحقل يقُودُ الماشيه
فبكينا
حين نادى ...
يا أبي !
إننا الأغرابُ في القفر الكبير
إننا ضِقْنَا وضاقَتْ روحنا
القطيع ..!
غاب راعيه ، وطَالتْ رِحْلَتهُ
وهو في بيداءَ لا ظلّ بها
يا لأقدامٍ تجُرُّ الأحْذِيَه
وتدقُّ الأرضَ في وقعٍ منفّر

يا لأقدامٍ تذبحُ النَبَأ
نبأ المصروعِ في صخرِ الجبل
إنه مات !
إنه مات وجَفَّتْ رِحْلَتُه
إنه مات وواراهُ الثرى
حيثُ مات
حين غابَ لهيبُ المِدفأه
كلُّ شيءٍ كانَ يحكي النَبَأ
قطةٌ تصرخُ من هولِ المطر
وكلابٌ تتعاوى
ورعودْ
كان فجراً موغلاً في وَحْشَتِهْ
وأتى نعي أبي
نام في الميدان مشجوج الجبين . .

الناس في بلادي

الناس في بلادي جارحونَ كالصقورْ
غناؤُهم كرجفةِ الشتاءِ في ذؤابةِ المطر
وضحكهمْ يَنُزُ كاللهيبِ في الحطب
خطاهُمُو تريد أن تسوخَ في التُرَابْ
ويقتلون ، يسرقون ، يشربونَ ، يَحْتَشُونْ
لكنّهمْ بشرْ
وطيبونَ حين يملكونَ قبضتي نقودْ
ومؤمنونَ بالقدر

وعند باب قريتي يجلس عمي « مصطفى »

وهو يحب المصطفى
وهو يقضّي ساعةً بينَ الأصيلِ والمَسَاءْ
وحولَهُ الرجالُ واجمون
يحكي لهم حكايةً ... تَجْرُبَةَ الحياه
حكايةً تثير في النفوس لوْعَةَ العدمْ
تَجْمَلُ الرجالَ ينشِجُون
ويطرقون
يحدقون في السكونْ
في لجّةِ الرعبِ العميقِ ، والفراغِ ، والسكونْ
« ما غايةُ الإنسانِ من أتْعَابِهِ ، ما غايةُ الحَيَاهْ ؟
يا أيها الإله !!
الشمس مُجْتَلاكَ ، والهلالُ مفرقَ الجبينْ
وهذه الجبال الراسياتُ عرشُكَ المكين
وأنتَ نافذُ القَضاءِ أيُّها الإله
بنى فلانٌ ، واعتَلى ، وشيّدَ القلاعْ
وأربعون غرفةً قد مُلِئَتْ بالذَهَب اللّماعْ

وفي مساءٍ واهنِ الأصداءِ جاءَهُ عِزْريل
يحمل بين اصبَعَيهِ دفتراً صغير
ومدَّ عزريلٌ عصاهْ
بسرٍّ حرَفيْ « كُنْ » ، بسر لفظِ « كان »
وفي الجحيمِ دُحْرِجَتْ روحُ فلان
(يا أيها الإله ...
كم أنت قاسٍ موحش يا أيها الإله)

بالأمس زرت قريتي ، قد مات عمي مصطفى
ووسدوه في التراب
لم يبتنِ القلاعَ (كانَ كوخُهُ من اللَبِن)
وسارَ خلفَ نعشِهِ القَديمْ
من يملكون مثلَهُ جلبابَ كتانٍ قديمْ
لم يذكروا الإله أو عزريل أو حروفَ (كان)
فالعامُ عامُ جوع
وعند بابِ القبرِ قام صاحبي خليل

حفيدُ عمي مصطفى
وحين مَدَّ للسماءِ زِنْدَهُ المفتُول
ماجَتْ على عينيهِ نظرةُ احتقارْ
فالعامُ عام جوع ...

السلام

ويظل يَسْعلُ ، والحياةُ تموتُ في عينيه ، إنسانٌ يموت
وعلى محياهُ القسيم سماحةُ الحزنِ الصموتْ
والبسمةُ البيضاءُ تهمرُ فوقَ خديه محبه
لَكَ ، لي ، لِمَنْ داسوه في دَرْبِ الزحامْ
ألقى السلامْ ...
وصفا مُحَيّاهُ ، وأغفَتْ بين جفنيه غمامه
بيضاءُ شاحبةٌ يطلُ بعمقِها نَجْمٌ سواد
وتمطّتْ الرئتانِ في صدرٍ زُجاجيٍّ خَرِبْ
وامتدت الأنفاسُ مجهدةً تراوغُ أنْ تبوحَ بالانكسار :
« إني انهزمتُ ، ولم أُصِبْ من وُسْعِها إلا الجدار

والنورُ ، والسعداءُ ، من حولي ، وقافلةُ البيوت
لكنـّهُ ألقى السلام ...

ومضى ، ولا حسٌ ولا ظلٌ كما يمضي ملاكْ
وتكورت أضلاعُه ، ساقاهُ ، في ركنٍ هناك
حتّى ينام
من بعد أن ألقى السلام

كنـّا على ظهرِ الطريق عصابةً من أشْقِياءِ
متعذبين كآلهه
بالكتْبِ والأفكارِ والدُخـّانِ والزَمَنِ المَقيت
طالَ الكلامُ ... مضَى المساءُ لحاجةٍ ... طالَ الكلام
وابتلّ وجهُ الليلِ بالأنداءْ
ومَشَتْ إلى النفسِ الملالَةُ ، والنعاسُ إلى العيون
وامتدتْ الأقدامُ تلتمسُ الطريقَ إلى البيوتْ
وهناكَ في ظِلِّ الجدارِ يظلُ إنسانٌ يموتْ

ويَظلُّ يسعلُ ،
والحياةُ تجفُّ في عينيه ،
إنسانٌ يموت
والكتبُ والأفكارُ ما زالت ..
تَسُدّ جبالُها وجهَ الطريقْ
وجهَ الطريقِ إلى السلام ...

الحزين

يا صاحبي ، إنّي حزين
طلعَ الصباحُ ، فما ابتسمتُ ، ولم يُنِر وجهي الصَباح
وخرجتُ من جوفِ المدينةِ أطلب الرزقَ المتاح
وغمستُ في ماءِ القناعةِ خبزَ أيّامي الكَفاف
ورجعتُ بعد الظُهْرِ في جَيْبي قروشْ
فشربتُ شايًا في الطريق
ورَتَقْتُ نعلي
ولعبتُ بالنرد الموزَّعِ بين كفي والصديق
قُلْ ساعَةً أو ساعتين
قل عشرةٌ أو عشرتين

وضحكتُ من أسطورةٍ حمقاءَ ردَّدَها الصديق
ودموع شحّاذٍ صفيق
وأتى المساء
في غُرْفَتي دَلَفَ المساء
والحزنُ يولَدُ في المساءِ لأنهُ حزنٌ ضرير
حزنٌ طويلٌ كالطريقِ من الجَحيمِ إلى الجحيم
حزنٌ صموتْ
والصمتُ لا يعني الرضاءَ بأنّ أمنيةً تموت
وبأنّ أياماً تفوت
وبأن مِرْفَقَنا وَهَنْ
وبأنّ ريحاً مِن عَفَنْ
مسّ الحياة ، فأصبحتْ وجميعُ ما فيها مقيت

حزنٌ تمدَّدَ في المدينه
كاللص في جوفِ السكينه
كالأفعوانِ بلا فحيح

الحزن قد قهر القلاع جميعَها وسبَى الكنوز
وأقامَ حكاماً طغاهْ
الحزنُ قد سَمَلَ العيون
الحزنْ قد عَقَدَ الجباه
ليقيمَ حكاماً طغاه

يا تعْسَها من كِلمةٍ قد قالها يوماً صديق
مغرىً بتزويقِ الكلام
كنّا نسيرْ
كفّي لكفّيْه عِناق
والحزنُ يفترشُ الطريق
قال الصديق :
يا صاحبي !...
ما نحنُ إلا نَفْضَةٌ رعناءُ من ريحٍ سموم
أو منيةٌ حمقاء
والشيطانُ خالقُنا ليَجْرَحَ قُدرةَ اللهِ العظيم

او أن اسمينا ببرجِ النحسِ كانا ، يا صديق
وجَفَلْتُ فابتسمَ الصديق
ومشى به خَدَرٌ رفيق
ورأيتُ عينيه تألقتا كمصباح قديم
ومضى يقول :
« سنعيش رغم الحزن ، نقهرُهُ ، ونصنع في الصباح
أفراحَنا البيضاءَ ، أفراحَ الذين لهم صباح » ..
ورنا إليَّ ...
ولم تكن بُشراهُ مما قدْ يُصدِّقُهُ الحزينْ
يا صاحبي !
زوِّقْ حديثَكَ ، كل شيءٍ قد خَلا من كلِّ ذوْق
أما أنا ، فلقد عرَفْتُ نهايةَ الحَدَرِ العميق
الحزنُ يفترشُ الطريقْ ...

عيد الميلاد لسنة ١٩٥٤

نَزَح المساء ولم أزل أحيـــا بأحـلام النيامْ
ارد النهار بمقلتَيْ سأمانَ من هَوْلِ الزحام
ماذا عليَّ لو انعطفتُ لغرفتي ... حتى أنام
وأغوصَ في بحر السلام

النور عملاقٌ يزلزل هدأتي ويَهُـدُّ أمْني
ويريبَ المهوى العميقَ لرحلتي فيريع ظني
يا ليلُ، يا راحي، ومصباحي وأفراحي، وكنّي
أبْعِدْ رماحَ النورِ عني !

يا وحدتي ! الليلُ راح لا بدَّ من خوضِ الصباح

لا بد من خوضِ الصباحِ إلى الجراحِ ، إلى النواح
ماذا يوسّعِ النازلينَ إلى الصبـــاحِ ، بلا سلاح
يا وحـــدتي ، الليل راح

الكأسُ في كفِي نجيبهْ تلد الخرافـات العجيبه
تلد المساءَ غوانياً يُغفينَ في الحُلَلِ القَشيبَـه
تلد الصباحَ انا بهِ (المنصورُ) في رأس الكتيبـــه
لكنّها حُبلَى كذُوبَه

أمُعيّري بالوهم ، لا وهمٌ هنـاكَ ولا حقيقـــه
الطفـــل يفجؤُني بأسئلةٍ محـــيرةٍ عميقه
وذوو الذقون البيض يزدحمونَ في الغرف العتيقه
ويفتشونَ عن الطريقه

يا عيدُ، يا نبعي الكئيبْ يا ذِكْرَ إنسانٍ غريب
حمل الذنوبَ عن القطيع فماتَ من وَقْرِ الذنوب
يـــا لاهثاً فوق الصليبِ يكادُ يسألكَ الصليبْ
لم مُتَّ من دونِ الصليب ؟

« سوناتا »

ولا تُشْغَلي إننـــا ذاهبانِ إلى قريةٍ لم يَطأهـــا البشرْ
لنحيا على بَقْلِها ، لا الحياةُ تَضنُّ علينا،ولا النَبعُ جَفّ
ونصنعَ كوخاً حواليه تلٌّ من الوردِ باحتَتْه، والسُجف
ويا فتنتي ، سأمِي رِحلَتي وغُرْبَتَنَا المَرفأُ المنتظرْ

وكانَ سريرك من صَندَلٍ وفَرْشَتُهُ من حَريرِ الشآم
وطوّقْتُ جيدكَ بالياسمين ومَسّحتُ كفّيك بالعنبرِ
وثوبك خيطٌ من الموسلين وخيطٌ من الذَهَبِ الأصفر
ونُرْخي الستارَ ، وفيروزتان تموجانِ في وَجهك المُستهام

وأيقظني صاحبي (يا فلان)
أفقْ ، غمرَ النُّور وَجْهَ الوجود
ودوّى القطارُ ، وماجَ الطريقُ
زحاماً من الأرضِ حتى السماء
يساقونَ والموتُ في مرصدٍ
لمعركةِ البُلْهِ والأغْبياء
لأجلِ الرَّغيفِ ، وظِلٍ وريفٍ
وكوخٍ نظيفٍ ، وثوبٍ جديدْ
وفي العصرِ شُفْتُكِ يا فتنتي
ولم نفترِق في الزحامِ البليدْ
وقبّلْتُ ثوبَكِ يا فتنتي
لأنّكِ أنتِ رجائي الوحيدْ

الرحلة

الصبحُ يدرجُ في طفولته والليلُ يحبو حبو منهزمِ
والبدرُ لَمَّ فوقَ قريتنا أستارَ أوبتهِ ، ولَمْ أَنَمِ

جامٌ وابريقٌ وصومعةٌ وسماءُ صيفٍ ثَرَّةُ النِعَمِ
قد كرَّمت أنفاسُها رِئَتي وتقطَّرتْ أنداؤها بِفمي
ونجيمـــةٌ تغفو بنـــافذتي
لَحَظَتْ شُرُودِيَ لحظَ مبتسمِ
وصـــدىً لمـــوالٍ يعـــاوِدُني
وحفيفُ موسيقَى من السُدُمِ
ورؤىً أنضرها وأقطفُها وألمُّها ، ويَذُرُّها سأمي

وعرائسٌ تختالُ في حُلمي بين الدفوفِ وضجةِ النغم
وأطلُّ مأخوذاً فتبسم لي تيجانها ، ويهزني ضَرَمي
وتردُها كفي فيفجِمُني حسُّ الدمى ، وبرودة الصنم
قمي تنكّرُ لي مسالكُها من بعدِ إلفي روعة القمم
يا رحلةَ المعنى على خَلدي قرّي يجدبي ، عانقي عدَمي

ولّى المساء وجوه السحري الصبح أشرق وجهه الخفري
يا إخوتي النوّام ، مـــا أحلى
حضنَ الكرى ، وسَذاجَةَ الفكرِ

الوافد الجديد

زورقي جانحٌ كسيرْ ... وشراعي بـه خُرُوق
وخليجي ومَرْفَئي ... نامَ من دُونهِ المَضِيقْ

وأنا جاهِـدٌ لَغُوبْ ... أتهـادى إلى الأبَـــد
نحو قصرٍ من الرمالْ ... وقلاعٍ من الزَبَـــدْ

بينهـا يرقُدُ الحبيبْ ... في سريرٍ من الدُخانْ
فوقَهُ مجْمَرٌ غريب ... وظلالٌ من القِيانْ

زورقي مالَ وانكسر ... غَامَ في الماءِ نصفُهُ
ضاعَ كدّي! فلن أرى ... من سبى النفس وصْفُهُ

وبعيـداً على الضفافْ ... هلّل الوافدُ الجَديدْ
لحبيبي ، عَـــلى دمي ... قد بَنى عالمـاً سعيدْ

الإله الصغير

كان لي يومـــاً إله ، وملاذي كانَ بيتُه
قال لي « إنّ طريقَ الوردِ وَعْرٌ » ، فارتقيتُه
وتلفّتُ ورائي ، ووراءي مـــا وجدتُه
ثم أصغيتُ لصوتِ الريحِ تبكي ، فبكَيتُهْ

●

ذاتَ يوم ، كنتُ أرتادُ الصحارى ، كنتُ وحدي
حين أبصرتُ إلهي ، أسمرَ الجبهة ، وَرْدي
ورقصْنا وإلهي للضُحى ، خَـــدّاً ... لِخد
ثمّ غنّـــا ، وإلهي ، بـــينَ أمواجِ وردِ

●

وإلهي كانَ طفلاً ، وأنا طفـــلاً عبدتُهْ
كل ما في الروض يهواهُ ، ولكنّي امتلكتُه
كلما نغّمَ في الأيكةِ عصفورٌ ، لثمتُه
وإذا ثارتْ بنا الأشباحُ والليلُ ، اعتنقتهْ

●

ومشينا مرةً في الليـــل ، والوجدُ طلاسِمْ
فنشقْنـــا ثورةَ المطرِ ، وقبّلنا الكمائِمْ
وشهِدنا في انتصافِ الليلِ ميلادَ النسائمْ
ورجِعنا في ثيابِ الفجرِ ، نبدُو كالتوائمْ

●

ثم أصبحتَ إلهي تمنـــعُ الحظوَةَ عنّي
وأناديكَ فأعيـــا ، ويسُدُّ الصمت أذني
وأناجيكَ على الحـــيرةِ في ظِلِّ التمنّي
أترى رحْتَ أم الوجدُ الذي ضـاعَ بعيني

●

كان لي يوماً إله وملاذي كانَ بيتـه
قال لي « إن طريق الورد وعر ، فارتقيته »
وتلفت ورائي ، ووراثي مـا وجدتُـه
ثم أصغيتُ لصوت الريح تبكي ، فبكيتُهْ

الأطلال

أطلال ... أطلال
يشي بها النسيانْ
في كفّه أكفانْ
لكل ذكرى قبرْ

وبينَها قبري ..

أطلال ... أطلال
ناحت له صَلَواتْ
واسترحمتْ عبراتْ
وتصدّتْ النَزَوَات

في ثوبها الشعري

أطلال ... أطلال
الوردُ فيها تلّ
ممزّقُ مبتل
بالنهرِ من دمعي
والقيظِ من فكري

أطلال ... أطلال
والجنُ فيها سُودْ
لهم فحيحُ السُودْ
يَشِبونَ في الأسحار
وثباً على صدري

أطلال ... أطلال
والفجرُ فيها طفل
معفّر مُعتلّ
ممزّق الوَجَنَاتْ

مروّعُ يجري

أطلال ... أطلال
والبلبلُ النوّاح
ولّى بغيرِ جَنَاح
إلا رؤىً وخَيَال
أصبحتُ لا أدري

أطلال ... أطلال
لا شيءَ غير الويلْ
وغير قلبِ الليلْ
وموكِبُ الإعْصَار
يعدو إلى البَحْرِ

أطلال ... أطلال
« تانجُو » تَرنّ هناكْ
أزهارُها أشواكْ
وشَطُّها خدّاعْ

والركبُ لا يدري

أطلال ... أطلال
هذي هي الأطلال
نِهايَةُ الآمالْ
أسعى وَرَاءَ الشَمْسْ
والشمسُ في ظهري..

ذكريات

ذاتَ مساءٍ مُظْلِمٍ كأنَّهُ سِرداب
أطلَّ من كوَى الجدارِ وَجْهُهُ المرْتابُ
والريحُ حولَ كوخِهِ قارصةٌ مدمدمهْ
والرعدُ قاصف الصدى ، مدينةٌ مُنْهَدِمهْ
والبرقُ ضاءَ في السَّما أهلِّةً أهلِّهْ
والأفقُ غابةٌ كثيفةُ النباتِ مُشْعَلَه
فلم يَجِد له إلى الخلاصِ من سبيل
ومات في مَسْجَنِهِ ، في كوخِهِ الذليلْ

وبعدَ عامٍ ، مثلما يقالُ ، دَبَتْ الحياهْ

في روحِهِ وجسمه ، فهبَّ يبتغي النجاهْ
أطلَّ من كوى الجدارِ وجهُهُ ، يا فرحتا
فأطبقَ العينين ، صرَّ بابَـــهُ ، والتفتَا
وكانتْ السماءُ بحـرةً تمـوجُ بالحنانْ
والشمسُ والهلالُ في الخضمْ زورقان
وحين مدَّ قـامةً كسيرةً محطومَهْ
تلفعَ الثوبَ القـديمَ ، والحوائجَ القديمه

وكانَ جائعاً وظامئاً ، ممزَّقَ الثياب
ولم يكُنْ لقلبهِ في الكونِ من أحْباب
وفجـأةً لاحت لـــه أميرةٌ مؤتزرَهْ
ببيضاءُ مثل لؤلؤٍ ، وحلوة كسكَّره
مدَّتْ ذراعَي فِضةٍ تلقـاهُ في تحْنان
وكوَّمَتْ في ثغرِها النضيرِ قبلَةَ الحنَان
لكنَّهُ استدارَ للفلاةِ حائرِ الخطى
كأنَّهُ ، فيما يحدثون ، عملاقٌ مضى

ومـاتَ يـا سيدتي الحسناءَ ميتةَ الشهيدْ
ولن يعودَ للحياة ، والشهيدُ لنْ يَعود
وتسألينَ : لم حكَيْتَ في المساءِ قصتَهْ
ولم بَعَثْتَ في السكُون ذكرياتِ ميته ؟
سيدتي ! وحينما عـاهَدْتُهُ كانَ يموت
سيدتي ! أمـا عرفتِ انَّني صموت
يطلُّ من كُوَى الجدارِ وجهُه المرتاب
كل مساءٍ مظلمٍ كأنَّهُ سِرْداب

الملك لك

أواحدتي ، قبلما نلتقي
بذاكَ المساءِ السعيد البعيدْ
بلوتَ الحياةَ وأرزاءَها
عرفتَ صليلَ القيودِ الحديد
وكم ليلةٍ جُعْتُ يا فتنتي
وأخرى ظمئتْ
وكم جَعَدَتْ عارضَيَّ الدماءْ
وقد وَخَزَتْها ليالي الشتاء
تصارعتُ والهولُ وجهاً لوجه
ولكنني ، ما عرفتُ الفرار

أواحدتي ... ربما تعجَبين
وقد تسألين
لماذا إذن يا صديقي ينوّرُ عينيكَ فيضُ سرورٍ وحب
حكايةُ هذا على طولها لا تثيرُ السآمْ
سأحكي الحكايةَ من بَدْئِها
لحدّ الختامْ

صبايَ البعيد
أحنُّ إليهِ ، لألعابِهِ
لأوقاتِهِ الحلوةِ الساميره
حنيني غريب ...
إلى صُحبتي
إلى إخوتي
إلى حِفْنةِ الأشقياءِ الظهورِ ينامونَ ظهراً على المصطبه
وقد يحلمونَ بقصرٍ مَشيد
وبابٍ حديد

وحوريةٍ في جوارِ السريرْ
ومائدةٍ فوقَها ألفُ صحن
دجاجٌ وبط وخبز كثير

إلى أُمي البرةِ الطاهره
تخوفُني نقمةَ الآخره
ونارَ العذاب
وما قَد أعدُّوهُ للكافرين
وللسارقينَ ، وللّاعبينْ
وتهتفُ إن عَثَرَتْ رجليه
وإن أرْمَدَ الصيفُ أجفانيه
وإن طنَّنَتْ نَحلةٌ حوليه
بإسم النبي

وفي الليلِ كنتُ أنامُ على حجر أمي
وأحلمُ في غفوتي بالبشَر

وعَسْفِ القَدَر
وبالموتِ حين يَدُكُّ الحياهْ
وبالسندباد وبالعاصِفَه
وبالغولِ في قصْرِهِ الماردِ
فأصرخُ رُعباً ...
وتهتفُ أمي باسمِ النبي

صباي البعيد
وأرْعَدُ إن مَسَّ قلبي رجعُ فجائِعِه المرّةِ الجائِره
وهذا الرجل !!
أخي وابن أمي
وكانتْ خطاهُ خطى العنفوانْ
وفي عينِهِ وَمْضَة الكبرياء
وفي ليلةٍ عادَ من حقله
وقد قطّبَت وجهَهُ عِلته
ومات !

وفي حُفرَةٍ من حفارِ الطريق
وهبناهُ للأرضِ باسم النبي
وجاءَ رجالٌ ، رجالٌ غلاظْ
ودَقّوا الحديدَ على قبرهِ
حديدَ الطريقْ
أواحدتي...فكرةٌ طوّفَتْ برأسيَ ذاكَ المساء السحيق
أكان يُدَقُّ صليبُ الحديد ؟
على رأسِهِ
يومَ كانَ قوياً تضجُ الحياة بشُريانِهِ ، ويفوحُ العرَقْ
لو الأرض لم تزدرده إليها ، أكانَ الحديدُ عليه يُدقّ..؟
ومن موتِهِ انبثقت صحوتي
وأدركتُ يا فتنتي أننا
كبارٌ على الأرضِ ، لا تحتَها
كهذا الرجل

أواحدتي ... المساءُ السعيد

وطيفُكِ يبهجُني بالحياه
فأحبُو إلى ذِكْرَياتِ الشبابْ
عرفتُ به نَوْرَةَ الأقوياءِ
بقلبي ، فأضحَتْ حياتي لهيب
وقالتْ ليَ الأرضُ « الملكُ لَكْ »
تموتَ الظلالُ ويحيا الوهج
الملكُ لك
الملكُ لك
الملكُ لك
فيا صيحةً لم يقلها نَبي
ولا سَاحِرٌ هَجَيٌ الصَنَجْ
ولكنها في مساري الدماء
ومن نَبْضَةِ الأذرعِ القادره
أواحدَني ، وعرفتُ القَلَمْ
كتبتُ بهِ أحرفاً شاعره
ليعرف إخوتي الأصفياءْ

نشيدَ البناء

الملك لك ...

أواحدتي ، في المساءِ الأخير
أؤوبُ إلى غُرْفتي
ويزحمُ نفسي انبهَار غريبْ
وأنظر يا فتنتي للسماءْ
ومن بابها الذهبيّ الضياءْ
يضيءُ الدجى بانهمارِ النجومْ
ينوّر في وجنتيها السلامُ ...
وتصدَحُ أجراسُها بالفَرح
وأفرح يا فتنتي بالحياةِ
بالأرضِ ،
بالملكِ ،
الملكُ لك

لحن

جارتي مَدَّتْ من الشرفَةِ حبلاً من نَغَمْ
نغمٍ قاسٍ رتيبِ الضربِ مزوفِ القرارْ
نغمٍ كالنار
نغمٍ يقلعُ من قلبي السكينه
نغمٍ يورِقُ في روحيَ أدغالاً حزينهْ
بيننا يا جارتي بحرٌ عميق
بيننا بحرٌ من العجزِ رهيبٌ وعميق
وأنا لستُ بقرْصَانٍ ، ولمْ أركب سفينه
بيننا يا جارَتي سبعُ صحارَى
وأنا لَمْ أبرح القريةَ مُذْ كنتُ صَبيا

أُلقيتْ في رجليَ الأصفادُ مذ كنت صبيًا
أنتِ في القلعةِ تَغفينَ على فَرْشِ الحرير
وتذودينَ عن النَفْسِ السآمهْ
بالمرايا واللآلي والعطورْ
وانتظار الفارس الأشقرِ في الليلِ الأخير
« أشرقي يا فتنتي »
« مولايَ !! »
« أشواقي رَمَتْ بي »
« آه لا تقسم على حُبّي بوجهِ القَمَرِ
ذلك الخَدّاعُ في كُلّ مَساء
يَكتسي وجهاً جديدا ..
جارتي ! لستُ أميرا
لا ، ولستُ المضحكَ المراحَ في قَصرِ الأمير
سأريك العجبَ المُعْجِبَ في شمسِ النهار
أنا لا أملكُ ما يَملأ كفّيَّ طعاما
ويخدّيك من النِعمةِ تفاحٌ وسُكّرْ

فاضحكي يا جارَتي للتُعساء
نغّمي صوتَكِ في كلّ فضاءْ
وإذا يُولَدُ في العَتَمَةِ مِصباحٌ فريدْ
فاذكري ...
زيتُهُ نورُ عيوني وعيونُ الأصْدقاء
ورفاقي طيبون
ربما لا يملكُ الواحدُ منهم حَشوَةَ فم
ويمرُّون على الدنيا خِفافاً كالنسمْ
ووديعينَ كأفراخ حَمامَهْ
وعلى كاهِلِهِمْ عبءٌ كبيرٌ وفريد
عبءُ أن يُولَدَ في العَتَمَةِ مِصْباحٌ وَحيد ...

أغنية حب

وجهُ حبيبي خيمةٌ من نورْ
شعر حبيبي حقلُ حنطهْ
خدا حبيبي فلقتا رمانْ
جيد حبيبي مِقْلَعُ من الرخام
نهدا حبيبي طائرانِ توأمانِ أزْغَبَان
حضن حبيبي واحةٌ من الكرومِ والعطورْ
الكنزُ والجنةُ والسلامُ والأمانْ
قربُ حبيبي

لقد صَنَعْتُ من ضلوعي ذلكَ الصُندوق

أوتارُهُ الظلامُ والخيالُ ، مُقلَتايَ عازفانْ
وجئتُ بستانَكِ الصغير ، يا مليكيةَ النساء
في غَبْشَةِ المساء
من بعد أن أنفقتُ يومي في الغناءِ للصِحَاب
حدثتُهم عن لوعَتي ، يا جَرْحِي ، المخضلَ ، يا ذلّي ،
وكلُّهم جريحْ

وليس مثلي واحدٌ ...
جيد حبيبي مِقلَع من الرخام
وجه حبيبي خيمة من نور
عَلَّقْتُ أقداري على خيطٍ رفيعٍ من ضِياء

صنعتُ مركباً من الدخان والمدادِ والورق
رُبَّانُها أمهرُ من قادَ سفيناً في خِضَمْ
وفوق قمةِ السفين يخفقُ العَلَم
وجه حبيبي خيمة من نور

وجه حبيبي بَيْرَقي المنشورْ
جبتُ الليالي باحثاً في جوفِها عن لؤلؤهْ
وعدتُ في الجرابِ بضعةٌ من المحَار
وكومةٌ من الحَصَى ، وقَبضَةٌ من الجمار
وما وجدتُ اللؤلؤه
سيدتي ، إليكِ قلبي ، واغفري لي ، أبيضٌ كاللؤلؤه
وطيبٌ كاللؤلؤه
ولامعٌ كاللؤلؤه
هديةُ الفقير
وقد ترينَهُ يزين عُشّكِ الصَغيرْ ...

أناشيد غرام

- ١ -

يا أملا تبسّما
يا زهراً تبرعما
يا رشفةً على ظما
يا طائراً مغرداً مرنّما
ما حطّ حتى حوّما
قلبي فريد
يغورُ فيه جرحهُ المديد
لأنه يا حبّي الوحيد
طفلٌ عنيد

مشرّدُ الخطى
يتوه في المدى
وراء نَغْمَة بعيدةِ الصدى
لعلّهُ خداعْ
لعلّ في بحرِ الهوى الضياع
لكنّ ريحاً تنشرُ الشِراع
لرحلة بلا صُوَى
إلى الهوى ..!
إلى الهوى
للحبّ من جديد

وأنتِ يا حبيبتي أسْقَيْتني خَمْرَه
في كاسةٍ مدوّرَه
وطارَ قلبي ، ثم طِرْتُ إثْرَهُ
فلستُ صاحياً لكي أراجِعَ الهوى
لعلّني أكونْ

غرقتُ في دوّامةِ الجنُون
لقد تركتُ العقلَ للذين يعقلوُن
وكلُّ ما أدريه أنني فتنتُ بك
بروحِكِ المحيّره
والنظرةِ المنكسره
والقامةِ المقتدره
وكلّ شيءٍ فيك يا حبيبتي كأنّهُ ذوْقي
وما حلمتُ أن أراهُ طيلةَ الأعوامْ

- ٢ -

حبُّكْ
عصفورٌ يَنْقُرُ في بَيْدَرْ
قلبي بَيدَر
عيناكَ نَعَاسٌ مخمُورُ
والخصلةُ ظِلّي من وَهَجَ الخدّين
والشفتين

خطٌ شفقيٌ عانقَ خطًا
وهلالٌ من رَحمَهْ
يُغْفي في صَدرِ هلالٍ من حُبهْ
قالت شفتاك نعَمْ
فأنا ملقىً فوق بساطِ الريحِ إلها محبُورا
نبَسَتْ شفتاكَ بلا ...
فأنا حائرْ
والظلمةُ تورقُ في قلبيَ دَغْلا
فلنفرح يا حبي ! فالعمرُ قصير
فلنفرح يا كنزَ الفرحةِ ...
يا كنزي ...

- ٣ -

أحبُك يا ليلايَ ، لا القلبُ غادرٌ
هواهُ ، ولا الأيامَ مُسْمِفَةٌ حُبّي
وأنتِ على البينِ المُشتّ وشيكةٌ

ولمّا تقبضُ الحاجُ للوالهِ الصَبّ
وكيفَ احتمالي البعدَ ، والبعدُ لوعةٌ
وكيفَ مُقامي ، والهوى نازعٌ لُبّي
وفي كل ما ترنو له العين ذِكرَةٌ
لهذا المحيّا الطلقِ ، والمبسمِ العذبِ
وأشجانِ ما نحكي وأحلامِ ما نرى
وأفياءِ عطفٍ يستظلّ بها قلبي
وقلتُ لقلبي – والأماني تعلّةٌ
رسا زورقي بعدَ الترحّلِ يا قلبي
وها قد بدا الحبُ الكبيرُ لناظري
نفضتُ يدي مما سواهُ من الحبّ

– ٤ –

وللقمرْ ...
وجهُكِ الطفلي
وللنسمْ

طباعُكِ الرقيقهْ
وفي مساء الصيفْ
صفاءُ نفسكِ الحيّيةِ الحبيبهْ
أودعتُهمْ – من قريتي – أمانةَ السلامْ
عليكِ يا حبيبتي ، لأنهم أصحاب
وأن يوشوشوا جميعَهُم بأذنِكِ الصغيره
في فجرِ يومِ العيد
« ليمتلىء بالفرحِ والأعيادِ عُمْرُكِ الطويل »
وقال لي القمر :
« لقدْ دلفتُ في حياءٍ نحو فرْشِها الصغيرْ
ثم وقفتُ ذاهلاً كأنني مَسحُور
وكان وجهها مُنوّراً كأنهُ .. قمَرْ
وقلتُ : يا أختي تقبّلي السلام
ثم تركتُ فوق خدّها نُجَيمَتَيْن
وقالَ لي النسيم :
« أحنيتُ رأسي عند بابها ، وكنتُ أرتجِف

فطمأنتني ، ثم قالت : عم مساءً يا نسيمُ ، ما وراءك؟
فقلتُ : يا مليكةَ النساءِ يبعثُ الفتى
من دارهِ الريفية السلامَ للمليكه
وأحمرَّ خدّها ، وتمتمتْ بكلمتين حلوتين :
الشكرُ لكْ
تنفّستْ عندئذٍ في الغرفةِ الموسيقى
فلمستْ كفّاي ثوبي ، وانطلقتُ في حفيف
مع النَغَمْ
مع النغم
مع النغم »
أما أخي ، زميل غربتي ، المسَاء
فقد غفَا يجانبي ينتظرُ الجواب
وحين عادَ صاحبايَ غانمين
عانقتهُ ، ونمتُ في أحضانهِ الرحيبه
حبيبتي ! أتضحكينَ ؟... إنها أحلام
ما أجملَ الأحلام

لمثلِنا ، لِمنْ يُمرّهُم شجَى الأيامْ

- ٥ -

لحنُ الختام يا حبيبتي هو السلامُ والدعاءْ
وأن تكوني لي ... إلى الأبد
وأن يكون حبُّنَا مباركاً كما الحياه
ونامياً عميقةً جذورهُ في نفسِنا
وأن نعيشَ هذه الأيامَ طاهرين شامخَيْن
ممزوجةً أقدارُنا في كاسةٍ نعبُّها معاً
وأن تكونَ مقلتَاكِ آخر الذي أرى من الحياه
وحينَ يكونُ قلبُكِ الكبيرُ جَنْبَ قلبي
فالبحرُ لا يفصلنا
والنارُ لا تخيفنا
وكلُ شيءٍ يا حبيبتي يهون
ما دمتِ لي ... إلى الأبد

رسالة الى صديقة

صديقتي
عِمي صباحاً ، إن أتاك في الصباح
هذا الخطاب من صديقِكِ المحطَّم المريضْ
وادعي لهُ إلهك الوديعَ أن يَشفيه
وسامحيه ، كيف يرجو أن يُنَمّقَ الكلام
وكل ما يعيشُ فيه أجردٌ كئيبْ .. ؟
فقلبه كسيرْ
وجسمه مغللٌ إلى فراشه الصغير
وبالجراح والآلامِ قلبُهُ كسير
نهارُهُ ثرثرةُ العوادِ والصِحَاب

ولِلهُ غرائبٌ لم يَحوِها كتاب
بالأمسِ في نومي رأيتُ الشيخَ محيي الدين
مجذوبَ حارتي العَجوزْ
وكانَ في حياتِهِ يُعايَنُ الإله
تصوّري ، ويَجتَلي سناه
وقالَ لي « ... ونسهرُ المساء
مسافِرَيْنَ في حديقَةِ الصفاء
يكونُ ما يكونُ في مَجالِسِ السحر
فظنَّ خيراً ، لا تَسلَني عن خَبَر
ويعقدُ الوجدُ اللسانَ ... من يبُحْ يَضل
ومِتْ مَغيظاً .. قاطعَ الطريقْ .. »
ومات شَيخنا العجوزُ في عام الوباء
وصدقيني ، حين مَاتَ فاح ريحُ طِيبْ
من جِسمِهِ السليبْ
وطارَ نعشُهُ ، وضجَّتْ النساءُ بالدعاءِ والنحيب
بَكيْتُهُ ، فقد تَصرَّمتْ بموتِهِ أواصِرُ الصَفاء

ما بينَ قلبيّ اللجوجِ والسماء
بالأمسِ زارني ، ووجهُهُ السمينُ يستديرْ
... مثلَ دينارٍ ذهَبْ
ومقلتاهُ حلوتان ... جرّتانِ من عَسَل
عميقتانِ بالسرور
بياضُ ثوبِهِ يكادُ يخطفُ الأبصارْ
وقال لي – وصوتُهُ العميقُ كالنَغَم –
« يا صاحِ : أنتَ تابعي
فقم معي ..
ردْ مَشرِعِي
فالأمرُ في الديوانِ ... قمْ ! »
– يا شيخُ محيي الدين إنني كسير
– لا يُكسَر الجناحُ ، يا إنسانُ ، والإنسانُ داءُ قلبِهِ النسيانْ
– يا شيخُ محيي الدين إنني صغيرْ
– بل كلنا صغارٌ ... الحبيبُ وحدَهُ هو الكبير

لم أدر كيف غاب
لا من خلالِ باب
أنصَتُّ ، لم أسمعْ خطاهُ تلمَسُ التراب
تَحدَّقْتُ وانتفضْتُ ، وانزعجتُ لحظةً ، وغاب

صديقتي ، إني مريض
وساعدي مكسور
ومُهجتي على الفِراشِ كلَّ ساعةٍ تَسيل
وأغزو التُرابَ في سكينتي رداء
وأصنعُ الأكفان ، ثم أنجُرُ التابوت
هذا الصباح ...
أدرتُ وجهي للحياةِ ، واغتمضت ، كي أموت
في هدأةِ السكوت
قد آن للشعاعِ أن يغيب
قد آن للغريبِ أن يؤوب
للمركب الجانح أن يَرْسُو على شَطٍّ قريب

للجدولِ الناضبِ أن يُفضي إلى نهرٍ رحيب
وطرقتين فوقَ بابنا ... موزّعُ البريد
لا ! لا أريد
هل مِنْ مزيدٍ يا حياة ، محنتي ! هل من مزيد
خطابُك الرقيقُ كالقميص بين مُقلتَيْ يعقوب
أنفاسُ عيسَى تصنعُ الحياةَ في التراب
الساقَ للكسيحْ
العينَ للضرير
هناءةَ الفؤادِ للكروبْ
المقعدونَ الضائعونَ التائهونَ يفرحون
كمثلما فرحْتُ بالخطابِ يا مسيحيَ الصغيرْ ...

نام في سلام

« لذكرى قريبي وصديقي الطيار محمد نبيل الباجوري »
« استشهد على رمال غزة في سبتمبر عام ١٩٥٥ »

وأذرفت عيناهْ دمعةَ السرورْ
ونَوَرت في وجهه النبيلِ بسمةٌ وديعهْ
يحارُ في تأويلها القضاهْ
ومد كفَّهْ ، منارةَ الضياءْ
ثم أجالَ طرفهْ كأنه يبارك الحياة والأحياء
بنظرةٍ باسمةٍ تضاحِكُ السماءْ
ومات ذلك الوديعُ دون ما احتفالْ

معلّماً ورائداً في سُنّةِ الكمالْ
أما التلاميذُ الذين أنفقوا أيامهم محبّةً للحِكمهْ
فقَدْ تهامَسوا بدهشةٍ
أيبسَمُ المعلم ؟ »
عندئذٍ أجابَ أكثرُ الشبابِ فطنهْ
ألم يَقُلْ لنا المعلمُ الشهيد حكمةَ الأجيال
يا أيها الإنسانْ ...
إعرفْ نفسك ..
وهو يموتُ وادعاً ، لأنه عرَفْ
فماتَ في سبيل سُنّةِ الكمالْ

وجرٌ آخَرٌ صليبهُ ، ووجهُهُ يفورُ بالزَبَد
والجُهْدُ والرَمضاءُ يَعْرِيانِ منكبين عاريينْ
لكنّه ابتسمْ
لأنه قد وهبَ الحياهْ
أيامهُ القليله

لكي يزيدَ في هناءةِ ابتسامةِ الصَبى
ونشوةِ العذراء
وفرحةِ الآباءِ بالأبناء
لكي ترفَّ في سَحابةِ السماءْ
حمامةُ السلام

أما أخي « محمدٌ نبيل »
فقد طوى جِنازُهُ شوارعَ المدينهْ
في ظهرِ يومٍ قائظٍ ، والناسُ مطرقونْ
أحبابهُ ، أحبابُنا ، وأهلُ حيِّنا القديمْ
وأعولتْ صَبيةٌ في شُرفةٍ مهدُومهْ
ودقَّ طبلٌ معولٌ ، وسارَ جُندٌ واجمون
وساءَلتْ مشيرةٌ عجوزُ
« في ذلك الصندوقِ ، من هذا الذي ثوى ؟ »
« هذا فتىً مجاهدٌ قد ماتَ في العشرين »
ولم تقل كَليمةٌ ، إمرأةٌ غريبهْ

لكنّها من قوْمِنا ، في قلبها كنُوز
وتعرفُ الحنانَ والأحزان
فاندفعتْ باكيةً في زحمَةِ الجِنَازْ
ومسّ لحمُها العجوزُ منكبي وساعدي
وكانَ لحمُ منكبي يغوصُ في الصندوق
وكلُّ شيءٍ كانَ هامداً كأنه يموتْ
لكنهُ يموتُ في عناقْ

وفي المدافن التي تنامُ في الحقولِ غيّبوهْ
لم يبقَ من هذا الوسيم غيرُ حفنةِ ترابْ
ترابِ مصر
تعود كي تنامَ في حضنِ الترابْ
تراب جَدّنا وأهلِنا ، تنامْ
تنامُ في سلامْ
وكانَ في وجه السما سحابة من الشَفق
حمراءُ مثلُ دَمّ

وكان في طرفِ المدَى نوَارةُ الحقُولْ
بيضاءُ مثلُ قلبَينا ، وقلبِهِ ، وقلبِ ميتين آخرينْ
من قومنا المجاهدين الطيبين
من قومنا الذين باركوا الحياةْ

مرتفع أبداً

رفع العلم المصري على مبنى البحرية ببور سعيد
يونيه سنة ١٩٥٦

لترتفعْ ، لترتفعْ ، يا أيها المجيدْ
يا أجملَ الأشياء في عينيَّ ، أنتَ يا خفاق
يا أيها العظيمُ ، يا محبوبُ ، يا رفيعُ ، يا مهيبْ
يا كلَّ شيءٍ كانَ في الحياةِ أو يكونْ
يا عَلَمي ، يا عَلَمَ الحريهْ
فداءُ تلكَ اللحظةِ المجيدةِ الثريَّهْ
مضى إلى السكون من أحبابنا ألوف

ليجعلوا قلوبهم تلاً من التراب
يقومُ فوقهُ العَلَمْ
ليغتلوا عُروقهُمْ سارية مجيدَه
يزينُ فرعَها العلم
لينسجُوا أيامهُمْ ديباجةً خضراءْ
ترف في الهواء
كوجهكَ النبيل ، يا علم
ومن بياض المقلتينِ ، حين تشخَصانِ للسماء
تستمطرانِ — في ليالي اليأسِ بسمةَ الرجاء
هلالُكَ الوسيمُ ، يا عَلم
فلترتفعْ يا أشرفَ الأشياءْ
أفديكَ صاعِداً إلى السماء
كطائرٍ منَ الجنَانِ ينقُرُ السحابَ والأجواءْ
برفةِ نبيلةٍ من ذلك الجناحْ
يهزُّ قلبنَا الحنينُ ، يا علم
في سحبةٍ صغيرةٍ من طرْفِكَ المعقودْ

يوجُ حبُّنا العميقُ ، يا عَلَم
لقد ملكتنَا بوجهكَ الجميل
ورفّةِ الجناح
وخفقكَ النبيل
ورقةِ الوشاحْ
وما اكتوينا في سبيل أن ترف يا عَلم

ليسترح على وسادِ الشمس خدُّكَ الرقيقْ
إلى الأبدْ
لتضحكْ السماءُ لكْ
سحابةٌ سخيةٌ تظلكْ
والقمرُ الزاهي يُقبّلُكْ
والشفَقُ المخضوب بالدماءِ يَغسِلُكْ
لتحترق على المدى جُسومُنا
لكي تنيرَ أنتْ
تغوصُ في جوفِ الثرَى عِظامُنا

لتستطيلَ في قلبِ الثرَى ساريَتُك
وترتفع
وما تزالْ ترتفع
يا أشرفَ الأشياءْ

سأقتلك

اكتوبر سنة ١٩٥٦

سأقتلك
من قبلِ أن تقتلني سأقتلك
من قبلِ أن تغوص في دَمي
أغوصُ في دَمِك
وليسَ بيننا سوى السلاح
وليحكُم السلاحُ بيننا
سنابكُ الجدودِ وقعُها المهيبُ ما يزَال
يموجُ في ذاكرَةِ الأيامْ

ونورُهُمْ يختالُ فوْقَ مَفرِقِ التاريخ
فمنهمْ الذي بنى حِجارةَ الأهرام
لكي يُمجّدَ الإنسانَ حينَ يشمخُ الأنسان
ومنهمُ الذي بنى منارةَ الإسلام
لكي يقول للأنامِ : لا إله إلا الله
ونحنُ في حاضرنا المجيدِ نصنع السلام
هديةً من شعبنا للعالم الجديد
العالَم الذي يريد
يريدُ للرجالِ أن يعانِقوا الرَجالَ دون حِقدْ
العالمُ الذي يريد
يريدُ للنساء أن يُغفينَ وادعاتْ
في أذرعِ الأزواج والأحبابِ والأبناءْ
العالَمُ الذي يُصبّحُ الأطفالَ ، نَوْرةَ الأمل
بنُغْنيَة الحنان والدُمى وبالقُبل
العالمُ السعيدُ ، واحةُ الأجيال
في سعْيها قوافلُ الأجيال ، نحو عالم سعيد

وأنتَ ، والإمحالُ والعَياءُ والظلامُ في خُطاك
تريد أن يَصفرَّ في القلوبِ بُرْعُمُ الآمال
في عالمٍ سعيد
أقسمتُ بالأهرامِ والإسلامِ والسلام
سأقتُلُك
بكُلِّ ما سُقيتُ من مراره الأيامْ
أغوصُ في دَمِك

أقسمتُ بالأخ الذي مضى ، وخلّتْهُ بلا ثمنْ
في عامِنا الماضي ، ولم يُلفَّ حول جسمه كفَن
لأنه احترق
على تراب « غزةَ » البيضاءَ بالطائرةِ احترق
كان اسمُه « نبيل »
وكنتُ في محبّتي أدعوهُ بُلبُلي الحبيب
وكان راعفَ الجناح ، دائبَ الأسفار
وكان حينما يعودُ ينقرُ الودادَ من فُؤادي ..

حبتين ... حبتين
فحبةٌ لجوعه ، وحبةٌ لذكار
وفي الأصيل ، كان يهدِلُ اللقاءَ غنوتين
فغنوةٌ لأهلنا ، وغنوةٌ للدار
لكنَّهُ مضى ، وخلَّتُهُ مضى بلا ثمن
أقسمتُ وجهُكَ الجديبُ سوف يُصبحُ الثمَن
من أجله سأقتلك
لأجل ثاره أغوصُ في دمك

الشمسُ في بلاد الشمْس بهجةُ النظَر
وفوق معطفِ السحاب يدْرُجُ القمرْ
وتزدهي النجوم كالزَهر
وفي ربى بلاد الشمس تورقُ الحياه
سنابلاً ذهبْ
والشمْسُ واللجينُ في صبا الأصيل ينسجان
مطارفاً ما حازَها في وهمهِ فنَّانْ

أقسمتُ بالقمر
وبالسحابِ والزَهر
وباللجين ، واهبِ الحياهْ
سأقتلك ،
من قبلِ أن تقتلَني سأقتلُكْ

أهلُ بلادي يصنعونَ الحبْ
كلامهُمْ أنغامْ
ولغْوُهُمْ بسّامْ
وحين يسغَبَونَ يطعمُونَ من صفاءِ القلْب
وحين يظمأُون يشربونَ نهلةً من حُب
ويلفِظون حين يلتقون بالسلامْ
— عليكمُ السلام
— عليكمُ السلام
لأنَّ من ذُرَى بلادنا ترقرق السلام
وفاضَ من بطاحها محبةٌ خضراءَ مثل نبتةِ الحقُول

ورقةً بيضاءَ كالأزهار في الحقيل
ورحمةً زهراءْ
كقلبِ أمهاتنا
كفرحنا بعيدنا
كالقطنِ حين يستنير لوزُهُ جنى
وأنتَ ، يا مُدنّسَ الخطى
تريدُ ، بئسَ ما تريد
لكنني سأقتلك
من قبل أن تقتلني أغوصُ في دمِك

الشهيد

يا عجباً ، كلّ مساءٍ موعدي مع المضرّج الشهيد
كأنّ منديلَ الشفقْ
دَمُهْ
كأنّ مدرجَ الهلال كفُّهُ ومعصمُه
كأنّ ظلمة المساءِ معطفُه
وبدْرةَ السنا أزرارُ سترته
كأنّهُ مسافرٌ على جوادِ الليل مشرقاً ومغربا
كلّ مساءٍ بلا ملالْ
يهيج في قلبي اللياعَ والشجى
لأن بين مقلتيه جرحاً ما يزالْ

وحين يوغلُ المساءُ ، أهتفُ اسمهُ الحبيبْ
أدعوهُ أنْ يخف لي من أفقهِ الرحيبْ
يجيءُ .. لا يكسر قلبي
تجوزُ خفّاه إلى جواري
ويتكئي جنبي على سريري
لكنما عيناي تُطرفان ، تعشيانْ
وكيف لي ، وجرحُهُ في وجهه مصباح
الصمتَ ! لا أحار منطقا
وربما أقولُ : أنت
وربما تطوفُ في وجهيَ أنفاسُهُ
كأنما تقولُ جئتْ ...
لكنما ديكُ الصباحِ صاح في الأفق
لنفترق
لا تلتْهُ عن موعدنا ، إلى اللقا
وحين ينشُرُ الجناح
يقول خافقي : رأيتُهُ

تقول مقلتي : كأنني رأيتْ

كل مساءٍ ينزلُ الشهيدُ في مدينته
يبثُّها أشواق قلبه البريءْ
وأمس مرَّ ثم حيَّا وجهُهُ الوضيءْ
هنيهةً وماج ثوبُهُ على استدارة الأفقْ
فوق رُبى المدينة الفساح
وانطفأتْ جراحُهُ في صدرها الجريءْ
ونوَّر المساءُ بالجراحْ
كأنه صباحْ ...

أغنية ـلاء

صنعتُ لك
عرشاً من الحرير ... مخملي
نجرْتُهُ من صندَل
ومسندين تتكئي عليهما
ولجةً من الرخام ، صخرُها ألماس
جلبتُ من سوق الرقيق قينتين
قطَرْتُ من كرْم الجنان جفنتين
والكأسُ من بللور
أسرجتُ مصباحا
علّقْتُهُ في كوّةٍ في جانب الجدار

ونورهُ المفضضُ المهيب
وظلُّهُ الغريب
في عالمٍ يلتفُّ في إزاره الشحيب
والليلُ قدْ راحا
وما قدْمتَ أنت ، زائري الحبيب

هدمتُ ما بنيت
أضعتُ ما اقتنيت
خرجتُ لك
علّي أوافي محملك
ومثلما ولدتُ – غير شملة الإحرام – قد خرجتُ لك
أسائلُ الروّادْ
عن أرضك الغريبة الرهيبة الأسرار
في هدأة المساءِ ، والظلامُ خيمةٌ سوداء
ضربتُ في الوديان والتلاع والوهادْ
أسائلُ الروّاد

« ومن أراد أن يعيش فليمُتْ شهيد عشق »
أنا هنا ملقىً على الجدار
وقد دفنتُ في الخيال قلبيَ الوديع
وجسمي الصريع
في مهمه الخيال قدْ دفنْتُ قلبي الوديع

يا أيها الحبيب
معذّبي ، يا أيها الحبيب
أليس لي في المجلس السنّي حبوةُ التبيعْ
فإنني مطيع
وخادمٌ سميع
فإن أذنْت إنني النديم في الأسحار
حكايتي غرائبٌ لم يحوها كتابْ
طبائعي رقيقةٌ كالخمر في الأكواب
فإنْ لطفت هل إليّ رنوةُ الحنان
فإنني أدل بالهوى على الأخدّان

أليس لي بقلبك العميق من مكان
وقد كسرتُ في هواك طينة الإنسان
وليس ثمَّ من رجوعْ ...